

السرد العربي وأفق الإمتاع دراسة في تراجم ابن قتيبة

د : مصطفى
الغرافي

باحث في البلاغة وتحليل الخطاب.
جامعة عبد الملك السعدي. تطوان. المغرب

يظهر التأمل في تراجم ابن قتيبة أن تراجع القصد الإمتاعى أمام الغرض الثقيفى والتعليمى الذى هيمن على كتاب "الشعر والشعراء" لم يؤد إلى غياب الوظيفة الجمالية فى هذا المصنف. مما يعنى أن المقصد الجمالى شكل أحد الأسئلة التى سعى المؤلف إلى الإجابة عنها فى تراجمه. وهو مقصد لا يبتعد كثيرا عن المجال التداولى الذى تتحرك فى إطاره مقاصد ابن قتيبة والغايات التى تحكم فى خطابه النثرى؛ فالمتعة التى قصد إليها فى تراجمه لا تعزى عن الفائدة ولا تخلو من بعد وظيفى. إنها وسيلة نافعة وأداة لخدمة غرض بلاغى تداولى تمثل فى التوجيه السلوكى الذى يعقب التأثير الجمالى. ولعل أبرز مظهر لأفق الإمتاع التداولى الذى تفتحته نصوص التراجم أمام المتلقى أن يتمثل فى حضور المكون السردى الذى تميز بالميل إلى تفصيل الأحداث والوقائع إلى جانب استراتيجية الدمج بين الخطابات كما تجسدت فى التداخل بين مكونات البنية السردية ومقومات الوظيفة الشعرية.

1- التفصيل السردى:

اتخذ ابن قتيبة من الخبر الأدبى⁽¹⁾ إطارا سرديا لعرض كثير من أخبار الشعراء وقصائدهم ينقلها عن علماء الشعر ورواته الثقاة. وقد توزعت النصوص السردية ما بين سرد يتضمن حكما نقديا أو قضية أدبية، وسرد يتعلق برواية أبيات وقصائد على ألسنة رواة الشعر، وسرد يتصل برواية جزء من حياة صاحب الترجمة أو موقف من مواقفه. ويضطلع الجانب السردى فى كتب التراجم بـ "نقل تفاصيل حياة وذات أهمية كبرى. إذ نرى الشاعر يحيا حياته الخاصة ونقف على علاقته برفاقه، كما نراه عند ممدوحيه أو داخل حلقات الأدب التى عرفها عصره"⁽²⁾ وقد تميز الخطاب السردى، فى تراجم ابن قتيبة، بغنى ظاهر فى التفاصيل السردية التى

تنقل أطرافاً من حياة ومواقف الشعراء مقارنة مع كتب التراجم الأخرى مثل كتاب "الأوراق" للصولي وكتاب "الأغاني" للأصفهاني⁽³⁾.

يتحقق التفصيل السردى في تراجم ابن قتيبة عن طريق الجمع بين طائفة من النصوص السردية المستقلة ودمجها في حكاية واحدة. ومن هذا الدمج يتولد كيان نصي جديد يزخر بالتفاصيل السردية التي تكسب نص الترجمة بعداً جمالياً وإمتاعياً كما تكشف عن ذلك النصوص الآتية:

- "قال الهيثم: كان امرؤ القيس مفركاً فبينما هو يوماً مع امرأة قالت له: قم يا خير الفتيان قد أصبحت. فلم يقم. فكررت عليه. فقام فوجد الليل بحاله. فرجع إليها فقال لها: ما حملك على ما صنعت؟ قالت: حملني عليه أنك ثقيل الصدر، خفيف العجز سريع الإراقة"⁽⁴⁾.

- "قال أبو عبيدة لجارية له: اصدقيني عما تكره النساء مني. قالت: يكرهن منك أنك إذا عرقت فحت بريح كلب. قال: أنت صدقتي. إن أهلي كانوا أرضعوني بلبن كلبة"⁽⁵⁾.

- "كان امرؤ القيس جميلاً وسيماً. ومع جماله وحسنه مفركاً لا تريده النساء إذا جربته. قال لامرأة تزوجها. ما يكره النساء مني؟ قالت يكرهن منك أنك ثقيل الصدر، خفيف العجز، سريع الإراقة، بطيء الإفاقة. وسأل أخرى عن مثل ذلك فقالت: يكرهن منك أنك إذا عرقت فحت بريح كلب. فقال: أنت صدقتي، إن أهلي أرضعوني بلبن كلبة. ولم تصبر عليه إلا امرأة من كندة يقال لها هند. وكان أكثر ولده منها"⁽⁶⁾.

إن العلاقة بين النص الأول والثاني علاقة تضمن واحتواء، حيث يمكن اعتبار النص الثاني امتداداً للأول وتفصيلاً له، لكونه يكشف اللثام عن سبب آخر لكراهية النساء للشخصية. وقد جاء النص الثالث مؤلفاً بين النصين السرديين مع تعديل طفيف يمس التعبير ولا يمس المضمون. وإذا كانت البطولة في النصين المستقلين أسندت إلى شخصيتين مختلفتين (امرؤ القيس - أبو عبيدة) فإن البطولة قد اضطلعت بها شخصية واحدة (امرؤ القيس) عند التأليف بين النصين، كما أن المرأة أصبحت جارية في النص الثاني، وفي النص الثالث عوضت المرأة والجارية بالزوجة.

وقد يتحقق التفصيل السردى عن طريق الجمع بين نصين سرديين مستقلين يتضمن كل واحد منهما معطيات وتفصيلات لا يتضمنها الآخر، ثم يرد نص

ثالث يؤلف بين النصين فيكون بمثابة تجميع لمختلف الخيوط السردية النازمة لنسيج الترجمة كما يظهر من هذه النصوص:

- " لما حضرت الحطيئة الوفاة قال: احملوني على حمار فإنه لم يمّت عليه كريم قط. فلعلي أن أبقى. ثم تمثل:

كُلَّ جَدِيدٍ لَذَّةٌ غَيْرَ أَنَّنِي رَأَيْتُ جَدِيدَ الْمَوْتِ غَيْرَ لَذِيذٍ⁽⁷⁾

- "(المدائني) لما حضرت الحطيئة الوفاة قيل له أوص. قال: بم أوصي؟ مالي للذكور دون الإناث. فقالوا إن الله لم يأمر بهذا. فقال: لكني أمر به. ثم قال: ويل للشعر من رواية الشعر. فقيل له أوص يا أبا مليكة للمساكين بشيء. قال: أوصيهم بالمسألة ما عاشوا فإنها تجارة لن تبور. قيل: أعتق عبدك يسارا قال: اشهدوا أنه عبد ما بقي. قيل: فلان اليتيم ما توصي فيه؟ قال: أوصي أن تأكلوا ماله وتنيكوا أمه. قالوا ليس إلا هذا. قال: احملوني على حمار فإنه لم يمّت عليه كريم لعلي أنجو. ومات مكانه⁽⁸⁾.

- "ومن المشهور عنه [الحطيئة] أنه قيل له حين حضرته الوفاة: أوص يا أبا مليكة. فقال: مالي للذكور (من ولدي) دون الإناث. فقالوا إن الله لم يأمر بهذا. فقال: لكني أمر به. ثم قال: ويل للشعر من الرواة السوء. وقيل له أوص للمساكين بشيء. قال: أوصيهم بالمسألة ما عاشوا فإنها تجارة لن تبور! وقيل له: أعتق عبدك يسارا. فقال اشهدوا أنه عبد ما بقي. وقيل له: فلان اليتيم ما توصي له (بشيء). فقال: أوصي بأن تأكلوا ماله وتنيكوا أمه. قالوا: فليس إلا هذا؟ قال: احملوني على حمار فإنه لم يمّت عليه كريم لعلي أنجو. ثم تمثل:

لِكُلِّ جَدِيدٍ لَنَّةٌ غَيْرَ أَنَّنِي رَأَيْتُ جَدِيدَ الْمَوْتِ غَيْرَ لَذِيذٍ
لَهُ خُبْطَةٌ فِي الْخَلْقِ لَيْسَتْ بِسُكَّرٍ وَلَا طَعْمٌ رَاحٍ يُشْتَهَى وَنَبِيذٍ⁽⁹⁾

لقد انحصر النص الأول في تصوير لحظة احتضار الحطيئة الذي طلب أن يموت على حمار متمثلاً بالشعر. أما النص الثاني فقد جاء مفصلاً لوصية الحطيئة ومتضمناً للنص الأول، فيما جاء النص الثالث في صورة تركيبية تؤلف بين التفاصيل الواردة في النصين الأول والثاني عن طريق التضمين والاحتواء.

وهناك كيفية أخرى يتحقق بها التفصيل السردى في خطاب الترجمة تتمثل في إغناء النواة السردية الأصل بعناصر جديدة لم تكن قد ذكرت في النص المختزل. ونمثل لذلك بالنصوص الآتية:

- "قال عبد الملك لأرطأة بن سمية: هل تقول الآن شعراً؟ قال: ما أشرب ولا أطرب ولا أغضب ولا يكون الشعر إلا بواحدة من هذه⁽¹⁰⁾. أما النص الثاني

"أرطأة بن سمية: "ودخل عبد الملك بن مروان فقال: هل تقول اليوم شعرا؟ فقال (كيف أقول وأنا) ما أشرب ولا أطرب ولا أغضب وإنما يكون الشعر على هذا؟ وأنا الذي أقول:

رَأَيْتُ الْمَرْءَ تَأْكُلُهُ اللَّيَالِي	كَأَكُلِ الْأَرْضِ سَاقِطَةَ الْحَدِيدِ
وَمَا تُبْقِي الْمَنِيَّةُ حِينَ تَأْتِي	عَلَى نَفْسِ ابْنِ آدَمَ مِنْ مَزِيدِ
وَأَعْلَمُ أَنَّهَا سَتَكُفُّ حَتَّى	تُوفِّي نَذْرَهَا بِأَبِي الْوَلِيدِ

ففزع عبد الملك وكانت كنيته، فقال: لم أعنك إنما عنيت نفسي. فقال عبد الملك وأنا أيضا(11).

ورد النص الأول في الجزء الخاص بـ "الشعر" من كتاب "عيون الأخبار"، حيث اعتنى المؤلف بإيراد الأشعار التي يستحسنها والأقوال التي مدارها على جنس الشعر فهو قصة قول تتدنى فيها الجوانب السردية وتتضاءل. أما النص الثاني فقد جاء في ترجمة أرطأة بن سمية. وقد شكل السرد إطارا ملائما لتفصيل ما أجمل في النص الأول، ولذلك طُعم المكون السردى بعناصر جديدة أبرزها الشعر الذي لم يرد في النص الأول، ثم الحوار الذي رُفد الترجمة بالبعد الدرامي الملازم لفعل السرد، حيث انتقل السرد من حكاية قول في النص الأول إلى بنية سردية أساسها الفعل ورد الفعل في النص الثاني الذي جاء توسيعا وتفصيلا للأول، إذا انطلقنا من أن المجمل سابق على المفصل. أما إذا اعتبرنا الثاني أسبق من الأول فإن العملية تصبح معكوسة حيث يكون النص الأول مقتطعا من الثاني.

وبقطع النظر عن النص الأسبق الذي يعتبر أصلا تخلقت منه النصوص اللاحقة، فإن تزاوج الوحدات السردية وتناسلها يمثل سمة بلاغية في تراجم ابن قتيبة التي يشكل الخبر نواتها الأساس(12)؛ إذ يتميز هذا الجنس الأدبي، كما أشار محمد القاضي، بالقدرة على التنقل بين السياقات النصية المختلفة(13). وقد تجلّى التأليف بين النصوص السردية عند ابن قتيبة بشكل أوضح في ترجمة المتلمس، حيث ذكر المؤلف أن هذا الشاعر كان ينادم عمرو بن هند ملك الحيرة هو وطرفة بن العبد، ولما هجواه أراد أن يعاقبهما، فاحتال لهما بأن أرسلهما إلى عامله بالبحرين بعد أن كتب لهما كتابين أوهمهما أنه أمر لهما بجائزة، فيما ضمنهما أمرا بقتلهما. وفي الطريق يلتقيان شيخا فيدور حوار بينه وبين المتلمس الذي يرتاب على إثره في الصحيفة التي يحمل، فيدفعها إلى غلام يقرأها فيخبره أنها تتضمن أمرا بقتله، فيقذفها المتلمس توا في نهر الحيرة. أما طرفة فقد رفض أن يقرأ صحيفته

متعللاً بأن عمرو بن هند لم يكن ليتجرأ عليه مثلما تجرأ على المتلمس، وينتهي الخبر بهذه العبارة: "فقدف المتلمس بصحيفته في نهر الحيرة [...]" وأخذ نحو الشام، وأخذ طرفة نحو البحرين، فضرب المثل بصحيفة المتلمس" (14).

لقد أورد ابن قتيبة هذه الحكاية في معرض الترجمة للمتلمس. ولذلك توقف بها عند النهاية التي آل إليها مصير هذه الشخصية، لكنه لم يعرض لمصير طرفة بن العبد الذي توقف به السرد عند توجهه إلى البحرين؛ أي إنه واصل طريقه حاملاً صحيفته إلى عامل الملك على هذا البلد. وفي ترجمة طرفة بن العبد نعثر على سرد تفصيلي لما حصل له بعد لقائه عامل الملك. وقد استهل المؤلف هذه الحكاية بما يدل على أنه يتابع سرد ما كان قد قطعه، حيث أشار إلى أن قصة المتلمس سبق ذكرها وأن ما يأتي هو متابعة لحكاية طرفة انطلاقاً من النقطة التي كان قد توقف عندها السرد في ترجمة المتلمس. وبذلك تكون هذه الحكاية تنمة لقصة سابقة: "أبو محمد: وأما المتلمس فقد ذكرت قصته. وأما طرفة فمضى بالكتاب فأخذه الربيع فسقاه الخمر حتى أثمله، ثم فصد أكحله فقبره بالبحرين. وكان لطرفة أخ يقال له معبد بن العبد، فطلب ديتة فأخذها من الخواثر" (15).

وقد تقترن متابعة الحكاية بطريقة أخرى من طرائق التفصيل السردية تتمثل في تفسير ما ورد مجملًا وتوضيح ما جاء إشارة، حيث ترد الحكاية مكثفة في موضع، ثم ترد في موضع آخر مفصلة، إذ تُطعم الحكاية بتفاصيل سردية تتضمن معطيات جديدة لم يكن السارد قد كشف عنها في الحكاية الأولى المجملة. ونمثل لذلك بحكاية وردت مختزلة في ترجمة كعب بن جميل: "قال يزيد بن معاوية: إن عبد الرحمن بن حسان قد فضحنا فأجج الأنصار! فقال له كعب: أرادي أنت إلى الشرك؟ أأهجو قوما نصرروا رسول الله صلى الله عليه، فدلّه على الأخطل" (16). ووردت مفصلة في ترجمة الأخطل: "قال أبو عبيدة: حدثني أبو حية النميري. قال: حدثني الفرزدق. قال: كنا في ضيافة معاوية ومعا كعب بن جميل التغلبي الشاعر، فقال له يزيد بن معاوية: إن عبد الرحمن بن حسان قد فضح عبد الرحمن بن الحكم وغلبه وفضحنا. فاهج الأنصار فقال له كعب: أرادي أنت إلى الشرك؟ أهجو قوما نصرروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وآووه! ولكني أدلك على غلام منا نصراني ما يبالي أن يهجوهم، كافر شاعر كأن لسانه لسان ثور. قال: ومن هو؟ قال: الأخطل. فدعاه وأمر بهجائهم. فقال: على أن تمنعني منهم؟ قال: نعم. فقال شعرا فيه:

دَهَبَتْ قُرَيْشٌ بِالسَّمَاخَةِ وَالنَّدَى وَاللُّؤْمُ تَحْتَ عَمَائِمِ الْأَنْصَارِ

فَدَرُوا الْمَعَالِي لَسْتُمْ مِنْ أَهْلِهَا وَخُذُوا مَسَاحِيكُمْ بَنِي النَّجَارِ

فغضب النعمان بن بشير ودخل على معاوية فوضع عمامته بين يديه. وقال: هل ترى لؤما؟ قال: بل أرى كرما وحسبا، (فما ذلك؟) فأنشده قول الأخطل واستوهبه لسانه فبلغ ذلك الأخطل فعاذ بيزيد فمنعه، وصار إلى أبيه فقال يا أمير المؤمنين أتهب لسان من رد عنك وغضب لك؟ قال: ومن هجانا؟ قال: عبد الرحمن بن حسان وأنشده قوله في رملة بنت معاوية:

هِيَ زَهْرَاءُ مِثْلُ لَوْلُؤَةِ الْعَوَاصِ مُيِّرَتْ مِنْ جَوْهَرِ مَكُونٍ

قال: ما كذب يا بني، فأنشده:

وَإِذَا مَا نَسَبْتَهَا لَمْ يَجِدْهَا فِي سَنَاءٍ مِنَ الْمَكَارِمِ دُونِ

قال: صدقت يا بني فأنشده:

ثُمَّ خَاصَرْتُهَا إِلَى الْقُبَّةِ الْخَضْرَاءِ تَمْشِي فِي مَرْمَرٍ مَسْنُونٍ

فقال: أما في هذا فقد أبطل (17).

ما من شك أن الحكاية الثانية تفصيل للأولى وتوسيع لها. وقد توسل الراوي في ذلك بأسلوب التفصيل السردى، حيث توقف السرد في هذه الحكاية عند اقتراح كعب على يزيد اسم الشاعر الأخطل ليضطلع بمهمة هجو الأنصار بدلا عنه، فيما تابعت الحكاية الثانية سرد بقية الأحداث التي تبين مآل طلب يزيد. وهو ما استلزم تفصيل ما جاء مجملا في الحكاية الأولى. وقد تمثل التفصيل في استقصاء ما حصل من وقائع ترتب عنه ظهور أحداث وشخصيات جديدة أسهمت في إغناء الملمح الدرامى في خطاب الترجمة وتطوير بنائها السردى؛ فإذا كان جوهر الحكاية الأولى قد انحصر في المحادثة والحوار، فقد طعم الحوار في الحكاية الثانية بالسرد، كما نزل الحدث في إطار مكاني هو فضاء الضيافة الذي يوحى بالألفة والدعة، وعزز ذلك بصورة بلاغية شبه فيها الأخطل بلسان ثور كناية عن خبثه، وأضيف مقطع حوارى بين يزيد ومعاوية. وقد أسهمت هذه الإجراءات في تطوير البنية السردية في الحكاية الثانية مقارنة مع الأولى، حيث زودتها بتفاصيل حكائية ساعدتها على ترسيخ الأحداث في ذهن القارئ وحفزته على الانفعال بها والاندراج في سحر خطابها.

إن اعتناء ابن قتيبة بتتبع التفاصيل السردية في كثير من المقاطع التي كونت تراجمه جعل منها نصوصا حكائية تتوخى وظيفة الإمتاع الجمالى إلى جانب وظيفة التبليغ الإقناعي. ولذلك ركز المؤلف على خطاب الحكاية إلى جانب مضمونها في مسعى إلى تحقيق الإقناع السردى الذي يمكن من شد القارئ وحفزته على التفاعل

مع محتوى الرسالة التي انطوت عليها التراجم. لقد أمد التفصيل السردى خطاب الترجمة بقدرة تفسيرية جعلت من التجارب الإنسانية المعبر عنها تجارب عامة تفيض عن حدود نص الترجمة لتشمل جماعة المتلقين وتؤثر في وجدانهم، فلم تكن مقاصد ابن قتيبة من التراجم التي صاغها منحصرة في التعبير عن تجارب فردية خاصة، بل أراد لقارئه أن يخرج من جزئية الحياة الفردية ليتغلغل في أعماق الحياة الكلية. وقد أفلحت التراجم في تعميم التجارب التي عبرت عنها على باقي مناحي الحياة اعتماداً على تفاصيل سردية صيغت صياغة عامة بحيث تشمل جزئيات متعددة، كما أفلحت في إضفاء السمة الدرامية على خطاب التراجم نظراً لقدرة التفصيل السردى على التقاط المواقف والانفعالات في بعدها الإنساني والدرامي. وهو ما أسهم في الرفع من مصداقية محتوى تراجم ابن قتيبة عند القارئ، لأن وقائع الخطاب المسرود لا تخص فرداً بعينه ولكنها تتعداه إلى الجماعة الإنسانية في كل عصر. مما يدل على أن ابن قتيبة توخى من سرد تفصيلات جزئية في عرض تراجمه غاية كلية شمولية تمثلت في تعميق معرفة القارئ بواقعه الإنساني والتاريخي عن طريق تزويده بتمثيلات سردية مفصلة. وهو ما جعل من التراجم خطاباً بلاغياً يجمع بين القصد الإمتاعى والغرض التداولي. ويمكن اعتبار التوسع الذي ميز خطاب الترجمة عند ابن قتيبة ثمرة من ثمار التفاعل بين هذا النوع النثري والخطاب التاريخي في بعده الأدبي، حيث استفاد خطاب الترجمة من تقنيات خطاب التاريخ القائم على التفصيل والإطالة فجاوز في كثير من الأحيان خطاب الخبر الأدبي الذي يتأسس على الإيجاز والاقتصاد. وقد مثل التفاعل بين الخطابات على نحو ما تجسد في الدمج بين الشعر والسرد مظهراً آخر من مظاهر البعد الجمالي في تراجم ابن قتيبة. إذ ما من شك أن الدمج بين جنسين خطبيين قد رقد نصوص التراجم بتنوع أسلوبى وغنى درامى مما جعل المزج بين الشعر والسرد بعداً بلاغياً في تراجم ابن قتيبة.

2- الدمج بين الشعر والسرد:

لقد وصف ابن قتيبة تراجمه بأنها أخبار⁽¹⁸⁾. وهو ما يلحقها بحقل السرد، حيث يعرض المؤلف في سياق سردي كثيراً من أخبار الشعراء ينقلها عن علماء الشعر ورواته الثقات. ولأجل ذلك مثل الدمج بين الشعر والسرد سمة بارزة في بلاغة تراجم الشعراء التي تقوم على المزج بين الشعر والخبر الأدبي، فقد ذكر محمد القاضي أن "الخبر اتخذ الشعر مطية للدخول في نطاق المنظومة الأدبية. ولهذا كان الرواة يتصيدون من الأخبار ما له صلة بالشعر والشعراء"⁽¹⁹⁾.

يكشف تدقيق النظر في تراجم ابن قتيبة أنه يسخر النصوص الشعرية التي بثها في ثنايا تراجمه لخدمة أغراض مختلفة ومتنوعة أهمها الإمتاع النفسي الذي يحققه القول الشعري، ثم الاحتجاج لصحة استعمال لفظة أو تركيب وما يتبع ذلك من قواعد لغوية ونحوية⁽²⁰⁾. وقد يكون الغرض الاستدلال على معنى كلمة أو مجموع معانيها⁽²¹⁾ أو التنبيه إلى بعض الأخطاء التي تضمنتها الأشعار⁽²²⁾، وقد يشكل استرفاد نصوص الشعر فرصة للخوض في قضايا نقدية وبلاغية⁽²³⁾. كما يأتي الشعر شاهداً على تصحيح رواية بعض النصوص الشعرية التي داخل ألفاظها اختلال أو فساد⁽²⁴⁾.

وبالإضافة إلى ذلك تقوم الأشعار التي تخللت تراجم ابن قتيبة بوظائف أخرى. من ذلك استدعاء النص الشعري في بعض المواضع ليحقق تماسك نص الترجمة عن طريق الوصل بين المقاطع السردية كما حصل في ترجمة أبي مججن⁽²⁵⁾؛ فالسرد في هذه الترجمة ثنائي المبنى. يتكون من مقطعين سرديين يفصل بينهما نص شعري. يصور المقطع الأول الشاعر أبا مججن في السجن الذي حبسه فيه سعد بن أبي وقاص لشربه الخمر، وعندما بلغه ما فعل المشركون بالمسلمين في معركة القادسية قال:

كفى حَزناً أَنْ تُطْعَنَ الخَيْلُ بالقَنَا وَأَصْبَحَ مَشْدوداً عَلَيَّ وَثاقياً
 ذا قُمْتُ عَنائي الحَديدُ وَغَلِقْتُ مَغَالِقِي مِنْ دُونِي تُصِمُّ المُنَادِيا
 هَلُمَّ سَلاحِي لاَ أبا لَكَ إِنِّني أَرى الحَرْبَ لاَ تَزْدَادُ إِلاَّ قَمادِيا

فلما سمعت أم سعد هذا الشعر رقت له فأطلقت سراحه على أن يرجع إليها بعد المعركة لتعيده في وثاقه، فركب فرسا لسعد وقصد ساحة المعركة متلثما حيث قاتل إلى جانب سعد وأبان عن شجاعة تعجب لها سعد وإن لم يعرف الفارس، ثم رجع إلى أم سعد التي أعادته في الوثاق، وعندما عاد زوجها أخبرته بالواقعة فأطلق سراح الشاعر.

لقد أصبح الشعر مندغماً في البنية السردية لنص الترجمة، حيث إن وروده في وسطها لم ينتج عنه أي تعطيل أو توقف سردي. بل على العكس من ذلك اغتنى الجانب الخبري في الترجمة بالمقطع الشعري الذي أكسبه بعداً درامياً وانفعالياً مكنه من مجاوزة الوظيفة التوثيقية المرجعية إلى الوظيفة الأدبية التخيلية التي تحقق المتعة الجمالية وتزيد من تفاعل المتلقي مع الأحداث المسرودة، حيث ينهض الشعر في مثل هذه السياقات بوظيفة التعويض التي تكون "في مواقف الانفعال القصوى مثل الحماسة والعشق، حيث لا تستطيع الحكاية استيعاب الحالة على

الوجه المؤثر، فيلوذ السارد بالشعر من أجل تجاوز التعطل وملء الفراغ الحدتي بشحنة لا تمهد لاستئناف السرد فحسب بل تمده بدفقة إضافية" (26).
وقد يتحول النص الشعري الذي يتخلل التراجم إلى مولد لنصوص سردية وحكاية على نحو ما ورد في ترجمة النابغة الذبياني التي تضمنت سردا شعريا لمثل كانت العرب تضربه على لسان الهوام (27):

تَذَكَّرْ أَنِّي يَجْعَلُ اللَّهُ فُرْصَةً	فِيصْبَحَ ذَا مَالٍ وَيَقْتُلُ وَاتِرَةً
فَلَمَّا وَقَّاهَا اللَّهُ ضَرْبَةً فَأَسِه	وَلِلْبَرِّ عَيْنٌ لَا تُغَمِّضُ نَاطِرَهُ
فَقَالَتْ مَعَاذَ اللَّهِ أُعْطِيكَ	إِنِّي رَأَيْتُكَ عَدَارًا يَمِينُكَ فَاجِرَهُ
أَبَى لِي قَبْرٌ لَا يَزَالُ مُقَابِلِي	وَضَرْبَةً فَأَسِ فَوْقَ رَأْسِي فَاقِرَهُ

وقد أورد ابن قتيبة في نفس الترجمة سردا نثريا للواقعة ذاتها رواه عن المفضل الضبي: "يقال امتنعت بلدة على أهلها بسبب حية غلبت عليها، فخرج أخوان يريدانها، فوثبت على أحدهما فقتلته، فكمن لها أخوه في السلاح. فقالت: هل لك أن تؤمنني فأعطيك كل يوم ديناراً؟ فأجابها إلى ذلك حتى أئثرى، ثم ذكر أخاه، فقال: كيف يهنئي العيش بعد أخي؟ فأخذ فأسا وصار إلى جحرها، فكمن لها، فلما خرجت ضربها على رأسها، قأثر فيه ولم يمعن. ثم طلب الدينار حين فاته قتلها. فقالت: إنه ما دام هذا القبر بفنائى وهذه الضربة في رأسي فلست آمنك على نفسي."

إن الحدث في هذا النثر السردى تأويل لمعنى الشعر الذي قاله النابغة الذبياني. لقد أمعن الراوي النظر في الأبيات الشعرية وحاول تفصيل ما جاء مجملا وتوسيع ما جاء إشارة. فكان نتاج ذلك متن سردي تولد بإيحاء من النص الشعري. وبهذا الإجراء يكون ابن قتيبة قد أفلح في تحويل النص الشعري إلى تركيب دلالي يندغم في صلب نسيج الترجمة مكتسبا بذلك شحنة دلالية إضافية يستمدّها من السياق النصي الجديد الذي تتفاعل فيه مقومات خطاب الشعر مع مكونات خطاب السرد.

وتتخذ بعض التراجم شكل محاورة شعرية يتداخل فيها خطاب الشعر بخطاب السرد على نحو ما ورد في ترجمة حسان بن ثابت: "كانت لحسان بنت شاعرة، وأرق ذات ليلة فعن له الشعر فقال:

مَتَّارِيكَ أَذْنَابِ الْأُمُورِ إِذَا اعْتَرَتْ أَخَذْنَا الْفُرُوعَ وَاجْتَنَّا أَصُولَهَا

ثم أجمل فلم يجد شيئاً فقالت له بنته: كأنك قد أجملت يا أبة؟ قال: أجل، قالت: فهل لك أن أجيز عنك؟ قال: وهل عندك ذلك؟ قالت: نعم. قال: فافعلي، فقالت:

مَقَاوِيلُ بِالْمَعْرُوفِ خُرُسٌ عَنِ الْخَنَّا كِرَامٌ يَعَاطُونَ الْعَشِيرَةَ سُوءَهَا
فحمي الشيخ فقال:

وَقَافِيَةٌ مِثْلَ السِّنَانِ رُزْتُهَا تَنَاوَلْتُ مِنْ جُودِ السَّمَاءِ نُزُوءَهَا
فقالت:

يَرَاهَا الَّذِي لَا يُنْطَقُ الشَّعْرُ عِنْدَهُ وَيَعْجِزُ عَنْ أَمَثَالِهَا أَنْ يَقُولَهَا
فقال حسان: لا أقول بيت شعر وأنت حية، قالت: أوأؤمنك؟ قال: وتفعلين؟ قالت: نعم، لا أقول بيت شعر ما دمت حياً؟⁽²⁸⁾.

لقد افتتح هذا المقطع من ترجمة حسان بتمهيد سردي قصير قدم فيه الراوي الشخصيات مبرزاً بعض ملامحها والعلاقة بينها، ثم فسح المجال أمام الحوار الذي شكل مولداً للفعل ورد الفعل في سياق درامي يشد القارئ ويدفعه إلى التفاعل مع الوقائع التي تعرض انفعالات إنسانية محكومة بأبعاد نفسية واجتماعية وجمالية؛ فالحوار يصور تنافساً بين أب وابنته مداره على إثبات التفوق في صناعة الشعر. وقد تضمنت المحاور بعض الإشارات التي ألمع من خلالها الراوي إلى توتر الموقف بين المتحاورين مثل "حمي الشيخ"؛ فهذه العبارة تكشف للقارئ أن العلاقة الاتصالية بين المتحاورين علاقة تنافس وصراع. ومما يزيد في توتر الموقف ودراميته أن الصراع يدور بين أب وابنته حول إثبات التفوق الشعري. وهو مجال نبغ فيه الأب الذي يعد من كبار الشعراء، ومع ذلك نجحت البنت في التفوق على أبيها الذي اعترف بهزيمته وقرر ألا يقول الشعر، لكن البنت تعلن أنها هي من سيتوقف عن قول الشعر حتى تحفظ لأبيها مكانته الشعرية المرموقة.

تكشف هذه المحاور الشعرية الواردة في سياق سردي أن غرض ابن قتيبة من صوغ تراجم للشعراء لم يكن منحصرًا في توثيق النصوص الشعرية التي رواها فقط، ولكنه توخى بالإضافة إلى ذلك تحويل المتون الشعرية إلى مادة سردية ودرامية تدخل في بناء التراجم؛ فقد عملت قصائد المعارضات التي تبادلها الشعراء في نفس الغرض أو في أغراض متقاربة مثل العتاب أو الاعتذار أو الهجاء على إغناء البعد السردى والدرامى في التراجم. وهو ما يتيح لنا أن نستخلص أن بناء التراجم على الدمج بين الشعر والسرد قد أسهم في مدها بشحنة دلالية مكنت المؤلف من نقل الانفعالات الداخلية للشخصيات في سياق درامى يقوم على المزج بين

خطاب تخيلي شعري ونسق تعبيري سردي، حيث يندمج الشعر في السياق السردى بشكل وظيفي يتيح الكشف عن المشاعر الداخلية للشخصيات على نحو ما حصل في ترجمة قيس بن دريح. إذ تآزر السرد والشعر من أجل نقل معاناة الشاعر وما يكابده من ألم الفراق، حيث تكفل السرد بنقل الجوانب الخيرية المتعلقة بتطليق الشاعر حبيبته لبنى وزواجها من رجل آخر: "وكانت لبنى تحتها فطلقها ثم تتبعته نفسها، واشتد وجده بها، وجعل يلم بمنزلتها سرا من قومه، فزوجها أبوها رجلا من غطفان. وعاد قيس زيارته إليها وشخص أبوها إلى معاوية، فأخبره بتعرضه لها، فكتب له معاوية بهدر دمه إن عاد". وقد توقف السرد نثرا عند هذه النقطة ليتولى السرد شعرا مهمة التعبير عن انفعالات الشاعر وتصوير محنته بسبب تطليقه زوجته التي يكن لها حبا ملك عليه نفسه ووجدانه(29):

فَإِنْ يَحْجُبُوهَا، أَوْ يَجْلُ دُونََ وَصْلِهَا مَقَالَهُ وَاشِ، أَوْ وَعِيدُ أَمِيرِ
فَلَنْ يَمْنَعُوا عَيْنِي عَنْ دَائِمِ الْبُكَاءِ وَلَنْ يَذْهَبُوا مَا أَجْنُ ضَمِيرِ
إِلَى اللَّهِ أَشْكُو مَا أَكُنْ مِنَ الْهَوَى وَمَنْ حُرِّقَ تَعْتَاذُنِي، وَزَفِيرِ

لا شك أن تلاحم الشعر والنثر في هذه الترجمة قد مكن ابن قتيبة من التقاط الحالة الوجدانية التي تلبست الشاعر. وذلك باستنفار الطاقة الدلالية والانفعالية الكامنة في خطاب السرد المدعوم بالمتن الشعري على نحو يفضي إلى بناء تواصل بلاغي مشحون بالدلالات النفسية والوجدانية. وتنشق أهمية التقاطع بين خطاب السرد وخطاب الشعر في هذا السياق من كونه يساعد على تعميق دلالة الترجمة، إذ يتيح نقل انفعالات الشاعر إلى القارئ بما يشكل من صور تشخيصية تثير المتلقي وتدفعه إلى التفاعل الحي والمباشر مع الحالة النفسية والوجدانية التي يعبر عنها النص الشعري، كما حصل في ترجمة جميل بثينة التي افتتحها ابن قتيبة بتمهيد سردي قصير يفيد أن الشاعر حضرته الوفاة، ثم تكفلت أبيات الشعر بتصوير الحالة الوجدانية التي استبدت بجميل وهو في النزاع الأخير(30):

بَكَرَ النَّعْيَ وَمَا كُنْتُ بِجَمِيلٍ وَثَوَى بِمَصْرِ ثَوَاءَ غَيْرِ قَفُولِ
وَلَقَدْ أَجْرُ الْبَرْدِ فِي وَادِي الْقَرْيِ نَشْوَانٌ، بَيْنَ مَزَارِعٍ وَنَحِيلِ
قُومِي بُثَيْنَةُ فَأَنْدُبِي بِعَوِيلِ وَابْكِي خَلِيلَكَ دُونََ كُلِّ خَلِيلِ

لقد تواشج السرد والشعر في هذه الترجمة على نحو أسهم في رفدها بعناصر درامية عديدة عملت على اجتذاب القارئ ودفعه إلى التعاطف مع الشاعر العاشق الذي لم يمنعه هول الموت من تذكر حبيبته التي التمس منها أن تبكيه

وتندبه كما يليق بحبيب ظل وفيما للعهد الذي قطعه لها، فلم يعشق سواها حتى غيبه الموت. لقد توخى ابن قتيبة نقل الواقع الخاص عبر التقاط اللحظات المثيرة في حياة الشعراء متوسلاً في ذلك بالدمج بين الشعر والسرد. وهو ما أكسب تراجمه بعداً درامياً وانفعالياً واضحاً؛ فإذا كان السرد قد تكفل بنقل الأحداث والوقائع فإن الشعر تولى الغوص في أعماق الشخصيات لرصد انفعالاتها والتعبير عن أحلامها وطموحاتها على نحو عمق من دلالات التراجم وعزز قوتها التأثيرية مما ساعدها على تحقيق الوظائف التي صيغت من أجلها.

خلاصة

لقد توخى ابن قتيبة من صياغة تراجم للشعراء إكساب متلقيه القدرة على التواصل مع النصوص الشعرية التي تنمي حاسته الجمالية وتهذب ذوقه ووجدانه. ومن هنا برز الأفق الإمتاعى شاخصاً في تراجمه. غير أن الإمتاع عند ابن قتيبة لا ينفصل عن الغاية التداولية. فهو مسخر لخدمة المضمون التداولي ممثلاً في القيم الثقافية والسلوكية والحضارية التي تحملها نصوص التراجم وتسعى إلى الإقناع بها. وبذلك تكون المتعة عند ابن قتيبة مقرونة بالفائدة وليست مفصولة عنها.

الهوامش

- 1- وصف ابن قتيبة تراجمه بأنها "أخبار" - انظر "الشعر والشعراء"، تح. أحمد محمد شاكر، مطبعة التراث العربي، ط3 - 1977 ج1 ص: 65
- 2- أمجد الطرابلسي، نقد الشعر عند العرب حتى القرن الخامس. تر. إدريس بلمليح دار توبقال للنشر ط1 - 1993. ص: 50
- 3- نفسه ص: 50
- 4- ابن قتيبة، عيون الأخبار، تح. داني ابن منير الزهوي، المكتبة العصرية- بيروت 2003 ج4، ص: 58.
- 5- نفسه، ج4، ص: 58.
- 6- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج1، ص: 127.
- 7- ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج2، ص: 53.
- 8- نفسه، ج2، ص: 54.
- 9- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج1، ص: 329.
- 10- نفسه، ج2، ص: 154.

- 11- نفسه، ج 1، ص: 529.
- 12- ابن قتيبة، الشعر والشعراء ج1ص: 65
- 13- محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، دراسة في السردية العربية، كلية الآداب، منوبة، تونس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1998. ص: 691
- 14- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج 1، ص: 188.
- 15- نفسه، ج 1، ص: 195.
- 16- نفسه، ج 2، ص: 653.
- 17- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج 1، ص: 492.
- 18- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج 1ص: 65
- 19- محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي ص: 542
- 20- ابن قتيبة، الشعر والشعراء ج 2 ص: 822
- 21- نفسه ج 1 ص: 209
- 22- نفسه ج 1 ص: 276
- 23- نفسه ج 2 ص: 803
- 24- نفسه 2 ص: 825
- 25- نفسه ج 1 ص: 430
- 26- فرج بن رمضان، الأدب العربي القديم ونظرية الأجناس، القصص، دار محمد علي الحامي، تونس، ط، 2001. ص: 184
- 27- ابن قتيبة، الشعر والشعراء ج 1 ص: 160
- 28- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج 1 ص: 313
- 29- ابن قتيبة، الشعر والشعراء ج 2 ص: 632
- 30- نفسه، ج 1 ص: 449